الحوار في الرسالة الموضحة للحاتمي388هـ

قراءة حجاجية

ا.م.د لؤي كريم عطية
قسم اللغة العربية- كلية التربية الاساسية- جامعة المثنى (العراق)
luay1976@mu.edu.iq

تاريخ الإرسال: 2022/05/07	تاريخ القبول: 2022/05/12	تاريخ النشر: 2.22/05/15

Abstract:

This study presents an argumentative reading in dialogue, which constitutes a major feature in discourses based on debate and debate, and the explanatory message of Al-Hatemi 388 AH is one of those discourses in which Al-Hatemi and his companions had dialogue with Al-Mutanabbi, in an attempt to reveal the effectiveness of dialogue in one of the antagonistic writings that prevailed in the fourth century AH. .

The study attempts to monitor the diversity of dialogue according to the multiplicity of councils in the message, between a dialogue based on the evaluative pilgrims, and between a negative dialogue in which the interlocutors deviate from the rules of dialogue to turn to personal antagonism, ridicule and challenge the personality of the other

مُلخّص البحث

تقدم هذه الدراسة قراءة حجاجية في الحوار الذي يشكل سمة رئيسة في الخطابات التي تقوم على المحاورة والمناظرة، والرسالة الموضحة للحاتمي388هـ أحد تلك الخطابات التي تحاور فيها الحاتمي وأصحابه مع المتنبي، في محاولة للكشف عن فاعلية الحوار في أحد مؤلفات الخصومة التي سادت في القرن الرابع الهجري.

إذ تحاول الدراسة رصد تنوع الحوار وفق تعدد المجالس في الرسالة، بين حوار قائم على الحجاج التقويمي، وبين حوار سلبي يخرج فيه المتحاورين عن قواعد التحاور الى التحول الى الخصومة الشخصية والسخرية والطعن في شخصية الآخر.

الكلمات المفتاحية: الحوار،التداولية،الحجاج،الحاتمي،الاقناع.

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم والة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين، وبعد:

يقع الحوار في صلب النظرية التداولية الحجاجية، بوصفه وسيلة للتفاهم ومسوغاً لاختلاف الآراء وتعددها،فضلاً عن الايمان بحق الآخر في الاعتراض ورفض الافكار اذا ما بُني على العقلانية وعلى قواعد التعاون وقبول الرأي والرأي الآخر.

وليس التراث الادبي العربي بمنأى عن الافادة من الحوار وتقنياته في القضايا النقدية، والرسالة الموضحة للحاتمي 388هـ أحد تلك النتاجات التي بنيت على الحوار الذي يقف بوساطته الحاتمي وجماعته للطعن في شاعرية وشعر المتنبي أثناء مناظراته في بغداد، اذ تندرج هذه الرسالة تحت اتجاه الخصومة في التأليف النقدي للقرن الرابع الهجري.

وقد تناولت الرسالة محاور خمس للكشف عن فاعلية الحوار الحجاجية، أولها: الحوار والمقدمات الحجاجية التي تُبنى على ضوء واقعة أو وقائع حجاجية دعت الحاتمي الى بناء مناظرته، والثاني: الحوار والحجاج التقويمي،إذ عمد الحاتمي في هذا اللون من الحجاج الى إبراز سلطته وبناء خطابه على تقويم شعر أبي الطيب، وتثبيت قواعد الشعر من شروط للاستعارة والعروض ونحو ذلك،والثالث: الحجاج وتغيير وجهة الحوار/ الحوار السلبي،حوار الأنداد والخصوم الذي يغلب عليه أخطاء التفكير والخلط بين المفاهيم،أما الرابع: الحوار وعدم كفاية الحجاج المحاج، إذ يتحول فيه الحاتمي الى السخرية والاستهزاء بابي الطيب، مما يؤشر عدم كفاية الحجة والتناقض بين ما يؤمن به وما يدعو اليه,وآخرها: الحوار واستراتيجية الاستدلال، إذ عمدت فيها اطراف الحوار الى الإفادة من الشاهد لتدعيم حججهم بغية اقناع الطرف الآخر.

وقد بذلت في هذه الدراسة جهدي فإن وفقت فمن الله، وان قصرت فمن نفسي، ومن الله التوفيق.

1- ماهية الحوار والمقدمات الحجاجية

يرى موشلر أن الحوار نوع من التفاعل اللفظي يلتزم فيه المتخاطبون بـ أن يتجادلوا ولأن يسجلوا نقاطاً على بعضهم وربما يتفاضلوا للوصول أو عدم الوصول الى حل' [(1)] والحوار مجال لإبداء الآراء بامتياز، يجد فيه المتحاورون متنفساً لقول ما يمكنهم قوله بشأن القضايا الثقافية والسياسية والادبية، واذا كان الحوار مجالاً للرأي فإن المستهدفين بالرأي ليس المتحاورين

فحسب بل المتابعين،لأنه يهتم بثلاث قضايا أساسية: موضوع الحوار من جهة، وشخصياته من جهة ثانية، وأهدافه من جهة ثالثة.[2]

ومن هذه القضايا الأساسية تتضح المقدمات الحجاجية التي بنى عليها الحاتمي 388هـ رسالته الموضحة التي ناظر فيها المتنبي في أربعة مجالس متفرقة، فموضوع الحوار هو الكشف عن سرقات المتنبي وانه ليس مخترعاً للمعاني ولا سواها من أفانين القول، ولعل في مقدمة الرسالة الموضحة ما يكشف عن ذلك،يقول الحاتمي: ((وسألتلوا ذلك بمنازعات نازعتها أبا الطيب تتعلق بشعره في عدة مجالس ضمتني واياه من بعد هذا المجلس،وبمواضع طالعتها من اجتلاباته وسرقاته وسقطات اسقطها في شعره..)).[3]

ومما لا شك فيه أن المقدمات الحجاجية تتأسس على ضوء واقعة أو وقائع حجاجية، والواقعة التي دعت الحاتمي الى بناء هذه المقدمة الحجاجية هي اعتذار المتنبي عن مديح الوزير المهلبي الذي يبدو وثيق الصلة بالحاتمي،وقد صرّح الحاتمي بذلك : ((لما ورد أحمد بن الحسين المتنبي... مدينة السلام،منصرفاً عن مصر ومتعرضاً للوزير أبي محمد المهلبي للتخييم عليه والمقام لديه، التحف رداء الكبر،وأذال ذيول التيه، وصعّر للعراقيين، وأرهف للخصام حدّه، ونأى بجانبه استكباراً، وثنى عطفه جبرية وازوراراً....يخيل عُجباً اليه، أن الأدب مقصور عليه، وان الشعر بحر لم يرد غير مائه غيره، وروض لم يَرُ نواره سواه...))،[4] ولكي تكتسب الوقائع فاعليتها في الحوار لابد من تشكلها في هيئة : ((مجموعة من المعتقدات والافكار المشتركة بين الافراد داخل مجموعة بشرية))،[5] ومن تلك الافكار التي يشترك فيها الناس أن المتنبي لا يمدح غير الملوك، قال البديعي: ((ولما استقر بدار السلام، وترفع عن مدح الوزير المهلبي ذاهباً بنفسه عن مدح غير الملوك شق ذلك على المهلبي، فاغرى به شعراء العراق، حتى نالوا من عرضه وتباروا في هجائه..))،[6] وكذلك فعل المتنبي مع الصاحب بن عباد الذي طمع بزيارته باصفهان: ((فكتب يلاطفه في استدعائه، ويضمن له مشاطرته جميع ماله، فلم يقم له المتنبي وزناً، ولم يجبه عن كتابه، وقيل ان المتنبي قال لاصحابه: إن غليماً معطاء بالري يريد أن أزوره وامدحه، ولا سبيل الى ذلك)).[7]

وعلى ذلك كله قرر الحاتمي الهدف من مناظرة المتنبي: ((وتخيل أبو محمد المهلبي، رجماً بالغيب،أن احداً لا يستطيع مساجلته، ولا يرى نفسه كفؤاً له،...نهدت له متتبعاً عواره، ومقلماً اظفاره، ومذيعاً اسراره، وناشراً مطاويه، ومنتقداً من نظمه ما تسمّح به...))،[8] ومن هنا تتبين سلطة المؤلف/ الحاتمي وبناء خطابه على القصدية، فكل خطاب مشدود الى قصدية محددة المعالم بالنسبة للمرسل أحياناً، وغير محددة المعالم بالنسبة للمتلقي/ القارئ أحياناً أخرى،[9]

لكن الحاتمي بنى حواره على قصدية واضحة المعالم للمتلقي منذ الوهلة الاولى في تتبع سقطات المتنبي انتصاراً للوزير المهلبي.

إن الخطابات الحوارية تندرج في النظرية الحجاجية،لأن من وظائفها محاورة الآخرين واقناعهم، فهي وحدات حوارية حجاجية تتمثل في المركبات التي هي أقوال المتحاورين،[10] والحوار نص استدلالي مبناه على البلاغ يتناوب عليه الجانبان، نص يؤول الى الانفصال عنهما بمحو العارض لآثار المعروض عليه، لينتهي بدوره الى الإنمحاء منه،[11] وفي الرسالة الموضحة يحاول الحاتمي أن يمحو الفضيلة والمزية عن شعر المتنبي، ويندرج هذا التصور ضمن الحوار الشبيهي، الذي يرى د.طه عبد الرحمن أنه يختص بكون العارض فيه يتظاهر بإشراك غيره في طلب المعرفة وانشائها وتشقيقها، بينما هو في حقيقية الامر آخذ بزمام توجيه المعروض عليه، في كل مرحلة من مراحل الحوار، فهو الذي يحدد للمعروض عليه مسألة سبق أن تدبرها، ويعين طريقاً لبحثها، وقد خبرها من قبل، وينتهي الى نتائج معلومة،[12] فلا ينبغي أن: ((يؤسس المرسل – ناقداً أو مبدعاً أو خطيباً- بناءة الحجاجي بطريقة تعسفية تحريضية يساق من خلالها المعنيون" خلسة" الى فرضيات سطحية أو مسلمات مراوغة، يجدون أنفسهم ناقمين، لا على الخطاب فحسب، بل على مُلقيه كذلك))،[13] وهذا التوصيف هو عين ما فعله الحاتمي في حواره مع المتنبي، فقد كان كثيراً ما ينحرف بحواره عن الغاية الاساسية من المناظرة(السرقة/عدم الابتكار) الى أشياء أخرى، كهناته في المعاني والعروض والبلاغة.

فتغدو تلك المحاورة كأنها مخاطبة سوفسطائية،إذ يوهم السوفسطائي محاورهُ بأنه انطلق من مقدمات يقينية أو مشهورة ليظلله أو يفحمه ويلزمه شنعة، ففيها يستبطن أموراً مغايرة لما يظهره،[14] وما يؤازر هذا الفهم أن الحاتمي يعد في المدونة النقدية من خصوم المتنبي، بل هو من أشد نقاد المتنبي انفعالاً وأكثرهم تعصباً عليه.[15]

2 – الحوار وفاعلية الحجاج التقويمي

وقد عرفه د. طه عبد الرحمن بأنه : ((اثبات الدعوى بالاستناد الى قدرة المستدل على أن يجرد من نفسه ذاتاً ثانية ينزلها منزلة المعترض على دعواه، فهاهنا لا يكتفي المستدل بالنظر في فعل القاء الحجة الى المخاطب،واقعاً عند حدود ما يوجب عليه من ضوابط وما يقتضيه من شرائط، بل يتعدى ذلك الى النظر في فعل التلقي باعتباره هو نفسه أول متلقٍ لما يُلقى، فيبني أدلته على مقتضى ما يتعين على المستدل له أن يقوم به،مستتبعاً استفساراته واعتراضاته ومستحضراً مختلف الاجوبة عليها ومستكشفاً امكانات تقبلها واقتناع المخاطب بها))،[16] ويقوم هذا الحجاج على : ((أمرين هما الهدف الذي يريد تحقيقه وهو الاقناع، والحجج التي يمكن أن

يعارضه بها المرسل اليه والتي يضعها في الحسبان في أثناء بناء خطابه، ويمحصها عند استحضار حججه، فيفندها ويعارضها بالحجج التي يتوقعها من المرسل اليه، فلا يتمسك بها إلا اذا أدرك أنها تؤول بخطابه الى القبول والتسليم))،[17] وبمقاربة ذلك الفهم للحجاج التقويمي مع الرسالة الاولى أو المجلس الاول، نلحظ أن الحاتمي أراد أن يمارس تقويماً على شعر أبي الطيب حين ركن الى: ((وضع القواعد النقدية وشرحها وايراد الامثلة عليها ومدى مباينة أبي الطيب في بعض شعره لها))،[18] من خلال ايراد الحجج بأمثلة من الشعر القديم وقياسها بالنسبة الى شعر المتنبي.

ومن أمثلة الحجاج التقويمي ما ذكره الحاتمي : ((فمن الواجب ألا تدفع عن احسان انتظمه شعرك، ولا عن معنى نكد طوّح به في البلاد فكرك، ولكنك تحسن في البيت من القصيدة والابيات إحساناً لا يجهله نقاد الكلام وأرباب البيان، ايجازاً في عبارته، وابداعاً في نظمه، وصواباً في معناه، وسلامة في لفظه، ثم تشفع ذلك بالابيات السخيفة لفظاً ومعنى،...فتأتي القصيدة بالشعر على غير مشاكلة ولا مشاكهة، ومن أفحش المعايب ألا تقع اللفظة مصاحبة اختها ولا مزاوجة ما جاورها))،[19] وتابع الحاتمي تفصيل مشاكلة اللفظ للمعنى بعد أن ضرب أمثلة من الشعر عليها قائلاً : ((وهذا لعمري عيب فاحش لان الكلام لم يجر على نظم، ولا ورد على اقتران وممازجة، ولا اتسق على اقتران، ومما يحتاج اليه القول أن ينظم على نسق المماثلة وأن يوضع على رسم المشاكلة،ومما ذهبت فيه هذا المذهب قولك:

ما أبعد العيب والنقصان من شيمي أنا الثريا وذان الشيب والهرم

وهذا أيضاً كلام جارٍ على غير مناسبة، لان الثريا ليست من جنس الشيب والهرم ولا هما من جنسها...))،[20] فنلحظ أن في ادعاء الحاتمي مسحة تقويمية تقوم على الشرح والتفصيل لإصول نظم الشعر والقواعد التي يقوم عليها، ويرى د. الشهري أن من مقولات الحجاج التقويمي ما يدل على : ((أن المرسل يستبق اعتراضات المرسل اليه، ثم يدحضها بحجج من الخطاب نفسه،معولاً في تكوين خطابه الحجاجي وبنائه على سعة معرفته بالموضوع))،[21] وتتضح غاية الحاتمي في رد المتنبي عليه في جريان بيته السابق على غير مشاكلة، إذ قال : ((إن ذاك، وعلى هذا فليس الذي قلته بأفحش من قول امرئ القيس:

فمثلك حبلى قد طرقت ومرضع فألهيتها عن ذي تمائم محول

اذا ما بى من خلفها انصرفت له بشقٍ وتحتي شقها لم يحول

فقلت، إن إمرأ القيس كان مفركاً،والحبلى قليلة الرغبة في الرجال،فيقول اذا ألهيتها فأنا الى غيرها أحب..))،[22] وهنا تظهر الكفاية الحجاجية في اللغة كلما كان هدف الخطاب هو اقناع

المستهدف به،[23] فالحاتمي يتمتع بسعة المعرفة اللغوية والأدبية في محاولته رد اعتراض المتنبي على ما احتج به من أن شعراء كبار مثل امرئ القيس وقع في عيب المشاكلة وعدم انتظام الشعر.

ومن ذلك أيضا أن الحاتمي يقف على الاستعارة والعروض موجهاً ومقوماً لشعر أبي الطيب: ((وحدود الشعر أربعة: وهي اللفظ والمعنى والوزن والتقفية،ويجب أن يكون الفاظه عذبة مصطحبة ومعانيه لطيفة واستعاراته واقعة وتشبيهاته سليمة،وأن يكون سهل العروض رشيق الوزن متخير القافية،رائع الابتداء بديع الانتهاء،وربما اخليت واخلفت واعذرت وهلهلت ...))،[24] فثمة في النص قواعد للشعر يتعلق بعضها بالوزن والقافية، والاستعارة والتشبيه والابتداء والانتهاء، إذ يبرز الحجاج التقويمي في النص من حوار الحاتمي مع المتنبي، فقد أشبع مقولته السابقة حواراً وأمثلة من شعر أبي الطيب، فقد أخذ عليه قبح تشبيهاته في حواره الآتي : ((ومن قبيح التشبيه قولك تصف كتيبة:

وملمومةٍ سيفية ٍربعية يصيح الحصى فيها صياح اللقالق

فقال: أما تشبه أصوات الحصى من تحت حوافر الخيل أصوات اللقالق؟

فقلت: هبه أشبهه فهل هو من محاسن التشبيه؟))،[25] فالحاتمي يحتج بأن يريد من المتنبي تشبيهاً حسناً لا أن تشبه أصوات الحصى تحت حوافر الخيل صوت اللقالق، فهو تشبيه قبيح.

ويتفاعل الحوار حين يدافع المتنبي عن استعارة لم تجد صدى عند الحاتمي: ((إنما جريت على عادة العرب في الاستعارة. فقلت: أجل إلا أنها استعارة مستهجنة قلقة حلت في غير محلتها، ووقعت في غير موقعها، والاستعارة اذا لم يكن موقعها في البيان فوق موقع الحقيقة، لم يكن استعارة لطيفة، وحقيقة الاستعارة أنها نقل كلمة من شيء قد جعلت له، الى شيء لم تجعل له، وهي على ثلاثة أضرب افتعرفها؟ فقال: ما لي ولهذا؟ قلت: فأنا اذكرها ضرورة، لأبين أنك بمعزل عن الاحسان في قولك: ((فإن ظنوني في معاليك تظلعُ..))،[26] ويكتسب النص قيمته الحوارية ضمن دائرة الحجاج التقويمي في أنه يقع في: ((حضن معركة معقدة من تأكيد النصوص الأخرى ونفيها في آن واحد، ومن خلال جدلية التأكيد والنفي هذه تتحدد طبيعة المجال الحواري))،[27] فالمحاورة بين الحاتمي والمتنبي على قدر كبير من الصراع، فالمحاور المعترض/ الحاتمي على نتاج وجودة شعر المتنبي يحاول أن يحقق نجاحاً عبر الايقاع به عن طريق الركون الى التقويم والتوجيه بإثبات القواعد الشعرية، ثم اثبات خطأ المتنبي بالقياس اليها وتصويبها.

3 – الحجاج وتغيير وجهة الحوار/ الحوار السلبي

إن التبادل الحواري يبنى على اركان تتمثل في المتكلم والمخاطب وموضوع التخاطب، وتتفاعل هذه الاركان فيما بينها لتحقيق غرض أو اغراض معينة ظاهرة أو باطنة، وبدون ذلك لا يمكن أن يمر الحوار في جو سليم ويحقق النتائج المتوخاة منه،[28] وقد يتحول الحوار الى حوار سلبي ينعقد على احتداد اللهجة وانتهاج العنف والنزوع الى الخصومة وبناء الخطاب على الدحض والتكذيب والاعتراض وتعطيل الحوار وتصلب الآراء وتوسل المغالطات المنطقية،[29] مما يحول عمل الحوار الى التحاملية والتعاكسية الى درجة أن مبدأ التعاون فيها يكاد يكون صورياً أو ضمنياً، والذي يتمثل في ضعف الخصم إزاء أسئلة خصمه أو أن المعرفة العلمية المشتركة غير متكافئة، أو أن الرصيد الحجاجي غير متوازن بينهما،[30] أو بحسب د. محمد العمري يكونان متغالبين ومتنافسين، حين يكون هناك تعارض في المقصد بينهما وتضاد في الهدف، فيعمل كل واحد منهما على الوصول الى هدفه الخاص من جهة ومنع خصمه من جهة أخرى.[31]

ومن الاسباب التي يحول الحوار فيها الى حوار سلبي عدم كفاية الحجة، والتي منها: ((المغالطات المنطقية، واخطاء التفكير، والتناقضات، ووقوع الخلط بين المفاهيم، والتبسيط المخل بقيمة الفكرة أو النظرية، واللجوء الى الحذف في غير مناسباته))،[32] ومن أمثلة ذلك قول الحاتمي محاوراً المتنبي: ((قلت: واخطأت أيضاً في قولك مع ضعف لفظك وسخف عبارتك:

شرف ينطح النجوم بروقيـ ـه وعزٌ يُقلقل الأجبالا

... قال: وبأي شيء أفسدته؟ قلت: ألم تقل ينطح النجوم بروقيه، والروقان القرنان؟ قال: أجل إنها استعارة، فقلت: لعمري إنها وان كانت استعارة، ولكنها استعارة خبيثة...))،[33] ويبدو أن ما طرحه الحاتمي يدخله في دائرة الحوار السلبي عن طريق عدم كفاية الحجة باتهام المتنبي بفساد بيته رغم معرفته بان التركيب في الشطر الاول من الاستعارة، ومع ذلك يصفها بـ (الاستعارة الخبيثة) ولا ندري ما معيار الخبث لدى الحاتمي؟ ومن هنا فان ثمة خلط بين المفاهيم، فساد البيت/ خبث الاستعارة، هذا الخبث الذي قرأه الحاتمي بعيونه فقط، يقول العكبري في هذه الاستعارة : ((يريد أن شرفك يبلغ الثريا بعلوه، ويزاحمها بجلالة قدره، ويناطحها بقرنيه، واستعار لشرفه قرنين، لأنها في الحيوان من اسباب القوة، ودواعي الاقدام والمنعة، مع عزٍ تتقلقل الجبال من هيبته، وتضطرب إعظاماً لرفعته...))،[34] ان الهدف من الحوار في النص هو الاساءة الى المتنبي لا بيان الزلل وتقويمه.

يستدل بيرلمان لفاعلية الحوار بمقولة شانييه " المطبوع هو الذي يقنع، أما المصنوع فإنه يجعل السامع حين يفطن به فخاً منصوباً له... ساخطاً على هذا الغش متبرماً منه لكونه غير مساعد على الاقناع".[35]

وتحلينا مقولة شانييه الى ما اتفق عليه علماء الأدب قديماً في أن الالفاظ والمعاني المشتركة حينما تتداول وتشيع تغدو معاني مشتركة مما لا سرقة فيه، لكن أن يعمد خصوم المتنبي الى الاعتماد على هذه القاعدة في تتبع سرقاته فهو يدخلهم في عدم كفاية الحجة، فينقل الحاتمي حواراً يعتمد على ذلك: ((ورسم المهلبي الأناة به، وأومأ الي. فقال أبو العلاء صاعد بن ثابت، وكان في الحال يخلف المهلبي: أنا استحسن قول أبي الطيب في سيف الدولة:

يمشي الكرام على آثار غيرهم وأنت تخلقُ ما تأتي وتبتدعُ

من كان فوق الشمس موضعه فليس يرفعه شيء ولا يضعُ

فقال المهلبي: هذا بكر لم يقله أحد. ثم أقبل على الجماعة وقال: هل تعرفون هذا لأحد؟ فقال أبو الحسن الانصاري المتكلم، وكان متعلقاً باذيال الأدب: يرجع الى التواب الذي يُخرج السرق، يريدني، فقال: ما عندك؟ فقلت: الاول مسروق من قول الصنوبري...وأما الثاني فمسروق من قول أبي دلامة..))،[36] وواضح من النص الذي يحمل دراما متفق عليها في الايقاع بالمتنبي في أن خصومه أول امرهم قالوا بأن المعنى بكر، ثم ما لبثوا أن أرجعوه الى السرقة من الصنوبري وابي دلامة، ما أوقعهم في أخطاء التفكير، إذ رد المتنبي عليهم مما نقله الحاتمي بالقول: ((فلما غشي أبا الطيب موج هذا الكلام قال رويداً، أما ما نعيته عليَّ من السرق مما يدريك أني اعتمدته، وكلام العرب آخذ بعضه برقاب بعض، وآخذ بعضه من بعض، والمعاني تعتلج في الصدور، وتخطر للمتقدم تارة وللمتأخر أخرى، والالفاظ مشتركة مباحة..))،[37] وهنا يتحول الحوار الى حوار سلبي قائم على عدم نجاعة حجج الخصم، فالهدف من الحوار والتحاور تحصيل الفائدة الذي يقوم على على حجة مقنعة لا أن ينتهي الى نقطة الابتداء، فبعد مقولة المتنبي في دفاعه عن المعاني المشتركة ومجيئها في شعره، عاد الحاتمي بالحوار الى بدايته بالقول: ((فاشرأب الوزير الى كلامه، واصغت الجماعة الى قوله، واظهرت استحساناً لا يستحقه ما أتى به، فقلت له: فأما قولك إن المعنى يعتلج في الصدور فيخطر للمتقدم تارة وللمتأخر أخرى، وإن الالفاظ مشتركة، فليس الامر كما تخيلته، ولا الكلام كله مشترك...))،[38] فنلحظ سلبية الحوار وعدم نفعيته، فبعد كل الادلة التي اعترض فيها المتنبي على خصومه واستحسانهم مقالته، يحاول الحاتمي تغيير وجهة الحوار والرجوع الى بدايته من دون حسم للنتائج ولا اقناع للمتلقي.

4 – الحوار والكفاية الحجاجية

يؤكد بيرلمان أن على المحاججين – مبدعين ونقاداً- الوعي بمدى قدرة وكفاءة مخاطبيهم، وبذلك يستطيعون – أي المحاججين- أن يجردوا من أنفسهم أشخاصاً يحملون سمات مخاطبيهم، فيحاوروهم ويسائلوهم، وهو ما من شأنه أن يثري الحوار ويفتح آفاقه،[39] يقوم الحوار في الاصل على عدم الاساءة الى الخصم بالقول، أو الفعل، بغية اضعافه عن القيام بحجته، ومن ذلك قلة الاصغاء اليه أو السخرية منه،[40] وقد تكون السخرية تقنية حجاجية حين يعمد صاحبها الى الافادة منها في دعم خطابه، كما يتضح في طريقة الجاحظ وآخرين، أما أن تكون السخرية وسيلة للتجريح وقلب الحوار، فهذا ما لا يحقق فاعلية للحوار ولا اقناعاً للمتلقي، فالأصل انه مهما كانت أحوال الشخص الذي تحاوره: ((يظل من اللازم مناظرته وكسر دعواه، بدل اضاعة الجهد في تجريحه واعاقة المحاورة معه بأي سبيل، بل أن هذا المسلك قد يكون له مفعول عكسي، بحيث يعتقد السامعون أن ذلك ما هو الا تهرب ناتج عن عجز المعترض عن كسر الدعوى ذاتها، فيتولد لديهم الميل الى الاعتقاد في صحتها)).[41]

وأحد دلائل الركون الى الهزء والسخرية من الخصم هي عدم كفاية المحاج في نقل الاطروحة الى مجال: ((صاحب الاطروحة لاحداث التباعد بين القول والفعل أو كشف التناقض بين ما يؤمن به وما يدعو اليه، أو رصد الخطأ والتشهير به، أو هتك ستر مخاطبه ببذيء القول، أو تضخيم مواطن الضعف والخلل وتشويه صوته والشك في نواياه))،[42] وقد عمد الحاتمي في مواطن كثيرة الى رصد سرقات المتنبي أو أخطائه بهتك ستره بكلام قاسٍ، وضخّم في مواطن أخرى مواطن الضعف والقصور لديه، قال الحاتمي معلقاً على أحد أبيات المتنبي: ((فتباً لهذا التشبيه، وضلة لهذا التمثيل،

ويا رحمتا للممدوح به والمواجه بإفساده))،[43] فيبدو الحاتمي متحاملاً على الشاعر، قاسياً بعبارته التي تضمر في طياتها معاني الهجوم العنيف والهزء والاستهزاء.

ومثاله أيضاً ما أورده الحاتمي: ((فوقع في التيه، وتدهدى أبو الطيب في آثارهم على أم رأسه..))،[44] إذ يحاول الحاتمي اهانة خصمه المحاور والإزدراء به بإبراز مظاهر ضعف تفكيره سبيلاً الى استنقاص مكانته وابراز تهافت اطروحته،[45] ان خطاب الحاتمي الانفعالي تجاه المتنبي يمثل أحد صور العدوانية: ((غير المباشرة من قبيل السخرية والإحالة والتورية والتهكم والفكاهة..))،[46] وقد اطلق عليه د.حسان الباهي حوار الصدام والنزاع الشخصي، الذي : ((يقوم على المواجهة المستندة الى العنف القائم عل التهجم والصدام، ويختص بعدوانية وبغي أحد أطراف الحوار أو كليهما، فهو يستهدف النيل من الآخر معنوياً أو مادياً، فعوض السعي الى

تقويض الحجج نتجه الى العراك والهجوم على المحاور))،[47] ويبدو أن هذا ما أراده الحاتمي وأصحابه في أكثر من وقفة في رسالته، أن يقف موقف الهازئ المتهكم من المتنبي، وأن يظهر عنيفاً في تقريعه والنيل منه بالابتعاد عن الحوار القائم على طرح الحجة وردها بشكل يحمله على الاقناع.

5 – الحوار واستراتيجية الاستدلال

لا جرم أن الحاتمي يعتمد في كشف سرقات المتنبي وتتبع عوراته على الاستدلال بالشواهد الشعرية والمقولات النقدية على امتداد الرسالة الموضحة، على وفق قياس شعر المتنبي الى شعر غيره، ومثلما يرى بيرلمان ان الاستشهاد: ((يهدف الى تقوية حضور الحجة، بجعل القاعدة المجردة ملموسة بواسطة حالة خاصة،[48] فإنه من جهة أخرى له بالغ الأثر في رد الحجة واسقاطها، فكان الاستدلال بالشاهد له دور مزدوج في حوارات الرسالة الموضحة بين ما يستدل به المدعي والمعترض.

ومن شأن الحوار أن يستند على نماذج/شواهد تنتمي الى المجال التداولي الحجاجي الذي يتيح للمحاور أن يسلك من سبل الاستدلال ما هو أوسع واغنى من بنيات البرهان الضيقة الى الاعتماد على الشواهد النصية،[49] والتي اطلق عليها ارسطو الحجج الجاهزة أو غير الصناعية، ويدخل في نطاقها القوانين والشهود والاعترافات وأقوال الحكماء، ومنها في التراث العربي ما يتعلق بتضمين الآيات القرآنية والاحاديث وأبيات الشعر والامثال والحكم، وهي حجج جاهزة تكتسب قوتها من مصدرها ومن مصادقة الناس عليها وتواترها.[50]

ومن امثلة ذلك ما أورده الحاتمي معترضاً على لفظ (البازيّ) في بيت المتنبي متهماً اياه بأخذه من البحتري: ((واللغة الثانية "بأز" بالهمز وأبؤر، كما تقول كلب وأكلب، ويجمع على بئزان، جاء ذلك في الشعر الفصيح. فقال: لم أقل هكذا وانما قلت البازي الاشهب بسكون الياء، فقلت: قد قطعت الف الوصل في البازي الاشهب ووصلت ألف قطع فجمعت بين ضرورتين في بيت واحد. فقال: قد جاء ذلك في الشعر. فقلت: انما جاء شاذاً وليس بسائغ لمحدث. فقال: قد قال الطرماح:

ألا أيها الليل الطويل ألا اصبحِ

فوصل. فقلت: الطرماح قروي والرواية الصحيحة

ألا أيها الليل الذي طال أصبحِ ببسمٍ وما الاصباح فيك بأروح..)).[51]

وبيّن من هذا الحوار دور الشاهد الشعري في محاولة دفاع المتنبي في تشديد ياء لفظة(البازي) على السكون، حتى وان كانت على قطع همزة الوصل فيها فقد وردت في شعر الطرماح الذي

ساقه المتنبي دليلاً على صحة استعماله، ومما نلحظ في الحوار أن الحاتمي ترك غايته الاساسية (السرقة من البحتري) الى الخوض في مسائل لغوية من قبيل قطع الف الوصل في (البازي الاشهب) ووصل ألف القطع، وهذا يؤكد أن البعد الحواري يقتضي الآخر بالضرورة، إذ لا يمكن أن نبلغ(أو نقنع) دون وجود الآخر، ولا يكون هذا الآخر مستقبلاً أو سامعاً محايداً، بل يكون فاعلاً أي سائلاً ومجيباً في الآن نفسه،[52] وقد تمظهر الآخر/المتنبي مجيباً ومستدلاً فاعلاً بالشواهد النصية في الاعتراض على خصمه ومنعه من تحصيل ادعاءه.

ومن أمثلة ذلك أيضاً ما قاله الحاتمي: ((ثم قلت: واخطأت في قولك مخاطباً كافور الاخشيدي:

يفضح الشمس كلما ذرت الشمـ س منيرة سوداء

فكيف توصف الشمس وصبغها البياض بالسواد؟ ما وجه استعارة الشمس للأسود إن كنت ذهبت في ذلك الى الاستعارة. فقال: إنما ذهبت الى قول النابغة:

فانك شمس والملوك كواكب اذا طلعت لم يَبدُ منهن كوكب

فقلت له: انما ذهبت في هذا الى أنه في مجده وسؤدده وبإضافة الملوك اليه كالشمس التي تستر النجوم عند طلوعها. وأنت لم ترد إلا أن هذا الممدوح في أوصافه يفضح الشمس طالعة، وهو مع ذلك شمس سوداء، والشمس لا تكون سوداء إلا في حال كسوفها... عاد معه المدح هجاء...))،[53] فالحاتمي لم يناقش في هذا الحوار شاهد المتنبي الشعري وقياس ما قاله عليه، بل تجاوزه الى بيان خطأ الاستعارة.

ويبدو أن المتنبي فهم جيداً طريقة الحاتمي في خوض الحوار معه، فحاول أن يعمد اليها في الرد عليه، فبعد اتهام الحاتمي له أنه احتذى معنى من بيت لأبي تمام يقول فيه:

رمى الله بك برجيها فهدمها ولو رمى بك غير الله لم يُصب[54]

رد عليه المتنبي بالقول: ((أما هذا في كتابكم؟ فكفر لعنة الله " وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى"{الانفال 17} ...))،[55] فقد استثمر المتنبي الاشارة الى النص القرآني في بيان ان المعنى الذي اتهمه الحاتمي باخذه من أبي تمام هو في الأصل معنى قرآني مما تشترك الشعراء وعامة الناس في استعماله.

وقد عمد المتنبي الى الاستدلال بالنص القرآني في الرد على الحاتمي في قوله: ((وقد أحلت في قولك:

اذا ما فارقتني غسلتني كأنّا عاكفان على حرام

والحلال أولى بالغُسل وأخص من الحرام، فكيف خصص الحرام بوصف يشركه فيه غيره، وله به اختصاص فوق اختصاصه. فقال أبو الطيب: أتيت بأحدهما فدّل على الآخر وإن لم اذكره.

وفي القرآن "سرابيل تقيكم الحر"{النحل18} وهي تقي البرد...))،[56] فالاستدلال بالشاهد القرآني في الحوار من شأنه أن يقوي درجة التصديق بقاعدة ما معلومة، ويقوي حضور القول في الذهن، فالاستشهاد يؤتى به للتوضيح وتقوية حضور الحجة وجعل القاعدة المجردة حسية وملموسة،[57] والقاعدة التي ركن اليها المتنبي هي أن يأتي بلفظ يدل على آخر وهو مستعمل في القرآن الكريم الاعلى بلاغة واعجازاً، وبيته الشعري لا يخالف القواعد النقدية على الاقل مما أسماه أهل البلاغة الارداف.

الخاتمة

لقد توصل البحث الى جملة نتائج يمكن اجمالها بما يلي:

- إن سلطة المؤلف/ الحاتمي حاكمة في الرسالة الموضحة وبناء خطابه على القصدية في تتبع سقطات المتنبي برغم علمه برفعة قدره ومكانته التي لا ينكرها أحد.
- كثيراً ما ينحرف الحاتمي بحواره عن الغاية الاساسية من مناظرته(السرقة/عدم الابتكار) الى أشياء أخرى، كهنات المتنبي في المعاني والبلاغة والعروض.
- يمارس الحاتمي حجاجاً تقويمياً على شعر أبي الطيب حين ركن الى الى وضع القواعد النقدية وشرحها وايراد الامثلة عليها وبيان مدى مباينة شعر المتنبي في بعضها، من خلال ايراد الحجج بامثلة من الشعر القديم وقياس شعره عليها.
- يتحول الحوار الى حوار سلبي في أحايين كثيرة، وينعقد على احتداء اللهجة وانتهاج العنف، وبناء الخطاب على الدحض ، مما يحول عمل الحوار الى التحاملية وفقدان مبدأ التعاون بين المتخاصمين، بسبب عدم كفاية الحجج أو تعمد صاحبها اللجوء الى تعطيل الحوار من خلال تصلب الآراء واعتماد المغالطات المنطقية.
- تشتغل بعض الحوارات على توظيف السخرية والاستهزاء وسيلة للتجريح وقلب الحوار مما لا يحقق فاعلية للحوار ولا اقناعاً للمتلقي، عن طريق تعميم الخطأ والخلل وتشويه صورة المتنبي.
- من شأن الحوار الاهتمام بالاستدلال لتدعيم الحجة، بإيراد الشواهد القرآنية والشعرية بوصفها نصوصاً جاهزة تصلح للاستدلال من طرفي النزاع.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم

- أزيار د.عبد السلام، آليات التفاعل النصي ودورها في التجنيس الادبي،دار كنوز ، عمان، ط 1، 2.16 .
- الباهي د.حسان ،أفريقيا الشرق، الحوار ومنهجية التفكير النقدي، المغرب، ط2، 2.13
- البديعي يوسف، الصبح المنبي عن حيثية المتنبي،تحقيق،مصطفى السقا وآخرين،دار المعارف،مصر،ط3 ، د.ت .
- التبريزي الخطيب، تحقيق، محمد عبده عزام ، ديوان ابي تمام ، دار المعارف، مصر، ط5 ، د تا .
- الحاتمي ابو علي، الرسالة الموضحة في ذكر سرقات المتنبي وساقط شعره،تحقيق د.محمد يوسف نجم، دار صادر، بيروت، ط1، 1965 .
- الشهري عبد الهادي ، استراتيجية الخطاب، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ط1، 2..4
- الطلبة د.محمد سالم الامين،الحجاج في البلاغة العربية،دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ط1، 2..8 .
- العكبري أبو البقاء ،ديوان أبي الطيب المتنبي ، التبيان في شرح الديوان تحقيق مصطفى السقا وآخرين،مطبعة مصطفى الحلبي، مصر، د،ط،تا .
- العمري د.محمد،دائرة الحوار ومزالق العنف، افريقيا الشرق، المغرب، ط1، 2..2
- بهلول عبد الله، الحجاج الجدلي، خصائصه ومشكلاته الاجناسية في نماذج من التراث اليوناني والعربي، دار نهى للطباعة، تونس، ط1، 2.13 .
- عباس د.احسان ،تاريخ النقد الادبي عند العرب ، دار الثقافة، بيروت، ط4، د.تا .
- عبد الرحمن د.طه، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، المركز الثقافي العربي،الدار البيضاء، ط2، 2... .
- عبد اللطيف د.عادل ، بلاغة الإقناع في المناظرة، منشورات ضفاف، بيروت،ط1، 2.13 .
- عشير د. عبد السلام عندما نتواصل نغير،افريقيا الشرق،المغرب،ط2، 2.12 .
- علوي د.حافظ اسماعيلي الحجاج مفهومه ومجالاته، دراسة نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة، عالم الكتب الحديث، الاردن،ط1، 2.1. .
- قادا د. عبد العالي، بلاغة الاقناع،كنوز المعرفة، الاردن، ط1، 2.16 .
- مطلوب د.احمد ، اتجاهات النقد في القرن الرابع للهجرة، وكالة المطبوعات، بيروت، ط1، 1973 .
- نظيف د.محمد، الحوار وخصائص التفاعل الحواري، أفريقيا الشرق، المغرب،ط1، 2.1. .
- مشبال د.محمد، في بلاغة الحجاج، نحو مقاربة بلاغية حجاجية لتحليل الخطابات،كنوز المعرفة، عمان، ط1، 2.16 .
- العمري د.محمد ، في بلاغة الخطاب الاقناعي، افريقيا الشرق،المغرب، ط1، 2..2 .
- الحاج د. ذهبية حمو، في قضايا الخطاب والتداولية،كنوز المعرفة، عمان، ط1، 2.16
- صوله د. عبد الله ، في نظرية الحجاج، دار الجنوب، تونس، ط1، 2.11 .
- عبد الرحمن د.طه، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي،الدار البيضاء، ط1، 1998 .

- الثعالبي، يتيمة الدهر في محاسن اهل العصر،تحقيق د.مفيد قميحه، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1983.

الهوامش والإحالات:

([1])ينظر، عبد اللطيف د.عادل ،بلاغة الاقناع في المناظرة:1.9-11.

([2])ينظر، نظيف د. محمد الحوار وخصائص التفاعل التواصلي:63

([3]) الحاتمي، الرسالة الموضحة:3-4

([4])نفسه:6

([5]) قادا د.عبد القادر، في بلاغة الاقناع:182

([6])البديعي يوسف، الصبح المنبي عن حيثية المتنبي:143 وينظر، الثعالبي،يتيمة الدهر:15/1.

([7])نفسه:146

([8])الرسالة الموضحة:7

([9])ينظر،الحاج د.ذهبية حمو، في قضايا الخطاب والتداولية:217 وينظر، صوله دعبدالله، في نظرية الحجاج:52

([10])عبد الرحمن د.طه، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي:275

([11]) ينظر،عبد الرحمن د.طه، في اصول الحوار وتجديد علم الكلام:42

([12])ينظر،نفسه:41

([13])ينظر، الحجاج في البلاغة المعاصرة:123

([14])ينظر، الباهي د.حسان، الحوار ومنهجية التفكير النقدي:3.

([15])ينظر، ،مطلوب د. احمد، اتجاهات النقد الادبي في القرن الرابع الهجري:258

([16]) اللسان والميزان:228

([17])ينظر، الشهري د. عبد الهادي، استراتيجية الخطاب:473

([18]) عباس د.احسان، تاريخ النقد الادبي:265

([19])الرسالة الموضحة:22

([20])نفسه:23

([21])استراتيجية الخطاب:474

([22])الرسالة الموضحة:24

([23])ينظر، الحوار وخصائص التفاعل التواصلي:73

([24])الرسالة الموضحة:25

([25])نفسه:3.-31

([26])نفسه:69

([27])آليات التفاعل النصي ودورها في التجنيس الادبي:22

([28]) ينظر، الحوار ومنهجية التفكير النقدي:3.
([29]) ينظر، الحوار الجدلي في التراث العربي:278
([30])ينظر، الحجاج مفهومه ومجالاته: 252/2
([31])ينظر، دائرة الحوار ومزالق العنف:62
([32]) الحوار الجدلي في التراث العربي:278-279
([33])الرسالة الموضحة: 9.-91
([34])ديوان ابي الطيب المتنبي بشرح ابي البقاء العكبري:134/3
([35]) ينظر، الحجاج في البلاغة المعاصرة:123
([36])الرسالة الموضحة:142
([37])نفسه:143
([38])الرسالة الموضحة:149
([39])ينظر، الطلبة د.محمد، الحجاج في البلاغة العربية:118
([40])ينظر، البنية الحجاجية في المناظرات الادبية:45
([41])بلاغة الاقناع في المناظرة:185
([42])الحجاج الجدلي في التراث العربي:28.
([43])الرسالة الموضحة:32
([44])نفسه:39 وينظر مثله في 4،52،56.،33،35،37،38
([45])الحجاج الجدلي في التراث العربي:287
([46])في بلاغة الحجاج:327
([47])الحوار ومنهجية التفكير النقدي:23
([48])ينظر،البنية الحجاجية في المناظرات الادبية:53
([49])ينظر، في اصول الحوار وتجديد علم الكلام:46
([50]) ينظر، في بلاغة الخطاب الاقناعي:9.
([51])الرسالة الموضحة:57-58
([52])ينظر، عندما نتواصل نغير:2..
([53])الرسالة الموضحة:66 وينظر مثله في:87،94،116
([54])ديوان ابي تمام: 59/1
([55])الرسالة الموضحة:17
([56])نفسه:128 وينظر مثله في: 84
([57])ينظر، في نظرية الحجاج: 55